العلم وتحدي التقدم

(منتدى الثلاثاء الثقافي بتاريخ ١٤٢٥/١١/٢هـ الموافق ٢٠٠٤/١٢/١٤م)

الأستاذ الدكتور فؤاد السني
أكاديمي ومحاضر سعودي

من الطبيعي لمن يقف موقفي هذا أن تتجاذبه الكلمات، وتتدافع في ذهنه وهو واقف حائر، كيف يحسم تلك التجاذبات؟

لكن وبالرغم من معرفتي بعجزي عن التعبير، وصوغ ما يختلجني من مشاعر، إلا أنني ملزمًا بأن أبدأ بكلمات الشكر والامتنان للقائمين على هذا المنتدى، على مبادرتهم الكريمة هذه، وأن اتبعها بكلمات الإعجاب والتقدير لهذا الإخراج الجميل، وهذا الحضور المميز، ولكل الكلمات المعبّرة التي تفضل بها الإخوة الكرام.

وأرى لزامًا عليَّ أن أذكّر بأن في مجتمعنا الكثير من العطاء، والكثير من التميز في كل اتجاهاته، وبمختلف سبله ووسائله، وهو أجدر بالتكريم من هذا المتحدث أمامكم. وحقيقة لقد طالت حيرتي وأنا أتخير مادة مناسبة للحديث عنها، تتناسب وروح هذا اللقاء، حتى استقر الرأي إلى ما ستستمعون وأترك لكم اختيار عنوانه.

المتأمل في مسيرة الأنبياء (صلوات الله عليهم) في دعوتهم لبني أقوامهم، يستنتج أن التفكر والتأمّل الموصلة للمعرفة هومحور رئيسي في رسالتهم، والمتأمِّل في رسالة النبي محمد ﷺ يرى أنها رسالة العلم والمعرفة المنضبطة بالأخلاق. فأول ما أمر به الرسول ﷺ هوأن يقرأ،

وأخذ الحثّ على العلم، والتعلم، والتفكر، والبحث حيزًا كبيرًا في الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، فالقرآن الكريم يتضمن أكثر من ٧٠٠ آية كريمة تحوي لفظة العلم أومشتقاتها، كما أن القرآن الكريم حوى بين دفتيه الكثير من الحقائق العلمية والتي أدرجت بشكل صريح أولمح لها، ونتيجة لكل تلك التعاليم والتوجيهات المباشرة والغير مباشرة، ونتيجة لتلك الحقائق التي كانت غائبة عن إدراك البشر، تشكّل مخزونًا علميًا وثقافيًا روحيًا، وجّهته الأخلاق الإسلامية لنشر المعرفة والعلم في ربوع الكون. فكانت الانطلاقة الكبيرة لنشر رسالة السماء الإلهية في بداية تشكل الدولة الإسلامية، وكانت الانطلاقة الأولى لحركة العلم والبحث في المجتمع الإسلامي.

فالعلم، والمعرفة، والعقل، والفكر في ثقافة المسلم، أشياء مقدسة يطمح إليها الجميع، وكان تاريخنا الإسلامي الأول خير شاهد على مكانة العلم في نفوس المسلمين، تلك المكانة التي ترجمت إلى أسماء كبيرة في عالم العلم والمعرفة، وترجمت إلى إنجازات استثنائية في شتى صنوف المعرفة.

العلم والمعرفة كانتا أساسًا ومحورًا جوهريًا في مسيرة الإنسان الحضارية عبر السنين الطوال، فنتيجة تفاعله مع بيئته طور الإنسان ما يعينه على التعامل مع الطبيعة وتوفير احتياجاته، معتمدًا على التجربة والملاحظة. والعلم والمعرفة ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها في نظر القائمين على إدارة شؤون البلاد من سياسيين وغيرهم، فهذا جواهر نهرو يقول: «العلم وحده هوالقادر على حلّ مشكلات الجوع، والفقر، والمرض، والجهل، والخرافات، والعادات والتقاليد البالية، والثروات الهائلة الآيلة إلى النضوب، والبلدان الغنية التي تتضور شعوبها جوعًا».. ويواصل قوله.. «وهل هناك من يجرؤ على تجاهل العلم؟ فنحن نتلمس العون منه في كل أمر، ولا وجود في المستقبل إلا

منتدى الثلاثاء الثقافي
Thulatha Cultural Forum

للعلم، ولكل من يناصر العلم».

تلك إطلالة سريعة على المكانة الطبيعية للعلم في نظرة الدين إليه، وفي الحاجة الملِحّة إليه، في سبيل بناء الحضارة الإنسانية، وفي حاجة النظام السياسي إليه في التعامل مع كل ما يواجهه في إدارة شؤون البلاد. إن هذه المكانة الجوهرية والمحورية للعلم والمعرفة، كانت وراء الإنجازات الكبيرة التي شهدتها الإنسانية، منذ بدء مسيرة الإنسان الحضارية حتى يومنا هذا، وسوف تكون المحرك لما ستشهده الإنسانية من إنجازات في مستقبلها.

فمنذ اكتشافه للعقل والذي شكّل الاكتشاف الأول للإنسان، مرورًا بتعرّفه على أهمية الماء، وزحفه إلى مصادره في نهر النيل، والرافدين، والأصفر ليشكّل محيطهم الجغرافي الانطلاقة الحضارية الإنسانية، وتنقله من مسمى حضاري إلى مسمى آخر، وصولًا إلى عصر الزراعة الذي مكث فيه طويلًا، ونهوضًا إلى عصر الصناعة، التي أعادت صياغة وتشكيل الحياة بشتى جوانبها، ووصولًا إلى عصر ما بعد الصناعة، أوما سمي بعصر المعلومات، خلال تلك المسيرة الإنسانية، وجدت اكتشافات، واختراعات، وإنجازات، واهتمامات معرفية، شكّلت علامات بارزة في حركة الإنسان.

وعند استعراضنا لبعض إنجازات الإنسانية الحديثة، نرى الكثير مما أنجز في مختلف المجالات، ففي مجال الطب أدّت الإنجازات الطبية إلى نقلة كبيرة في المستوى الصحي للإنسان ومعدل عمره، فمعدل وفيات الأطفال الـ٥٠٪ المخيفة، ومعدل عمر الإنسان الذي لم يتجاوز الـ ٤٠ قد تم التغلب عليها عالميًا.

وبفضل الكيمياء والهندسة الوراثية والتقانة البيولوجية، اهتدى الإنسان لإنتاج اللقاحات، والأسمدة، والتدخل الايجابي في الإنتاج الغذائي، وتمكن من مضاعفة إنتاج المواد الرئيسية مثل القمح والأرز.

وينبهر الإنسان وهو يشاهد الزيارات المبرمجة للفضاء الواسع، ويصل بها إلى القمر، ويخطط للوصول إلى المريخ وغيره.

وفي مجال الالكترونيات، نرى الإنجازات المتتالية، والتي يعجز حتى المختصون من مواكبة الإحاطة بتفاصيلها، وربما كان الحاسب أحد ابرز تلك الإنجازات، والذي لم يكن مرحبًّا به في بداية الستينيات، لنصل الآن إلى عصر المعلومات، أو ربما ما بعدها، والذي يشكِّل الحاسب فيه محور كل تحرك، ونصل إلى مرحلة يتحالف فيها الثلاثي: الحوسبة، والاتصالات، ووسائط الإعلام، لتأخذنا عبر ما سمِّي بثورة الأنفروميديا، أو ثورة الوسائط المعلوماتية، والتي من المتوقع أن تشكِّل تحديًّا للإنسان في نمط عيشه، وأسلوب تعاطيه مع محيطه.

لا أريد أن أسهب كثيرًا في ذكر ما أنجزته الإنسانية في قرنها الأخير، ولكن كان الهدف من استعراضي هذا هو استحضار شواهد على الكم الهائل من النتاج العلمي للإنسانية، ويحق للإنسانية أن تفخر بذلك، فتلك الإنجازات في جانب كبير منها استجابة إنسانية، تتماشى مع الفطرة السليمة في سبيل إعمارها للأرض.

ولكن كيف لنا نحن المسلمين والعرب أن نفخر، وأمتنا لا تزال تقف على هامش المسيرة العلمية والحضارية؟ فالجزء الأكبر من الأمة لا زال يعيش عصر الزراعة الأول، والجزء الآخر منها يعيش تيهًا حقيقيًا في التعامل مع واقعه. هذا الواقع جعل أمتنا العربية والإسلامية تعيش على فتات ما يتكرّم عليها من معطيات العلم، وهذا ما رسّخ التخلّف والتبعية للأمة، حيث أصبحنا مستهلكين لمنتجات الحضارة، وفي الكثير من الأحيان مستهلكين غير واعين وغير ناضجين.

وليس المقام مقام سرد ممل للأرقام لإثبات ما هو ثابت، ولكن من خلال عرضنا لبعض المقارنات والتي تتخذ طابعًا هزليًّا في بعض جوانبها، سنتعرف على حجم التخلف الذي نعيشه، فالعالم العربي

ترجم ١٠٠,٠٠٠ كتابًا منذ عصر المأمون، وهذا الرقم مساوي لما تترجمه أسبانيا في عام واحد، والناتج الإجمالي لكل الدول العربية أقل من الناتج القومي لأسبانيا وحدها. وبدلًا من أن تزيد وتيرة الإنفاق على التعليم، فقد انخفض الإنفاق على التعليم مقارنة بما تنفقه الدول الصناعية بمقدار النصف خلال ١٥ عامًا، ولم يحظَ البحث العلمي بالاهتمام، فالإنفاق على البحث والتطوير العلمي في العالم العربي هوالأقل في العالم، ونصف النساء العربيات أمّيات، ويوجد عشر ملايين طفل أمّي، والأمّية هنا تعني فك الحرف وأمّية القراءة والكتابة، بينما نحن في عصر نتحدث فيه عن أمّية متقدمة على هذا المعنى، وهي أمّية التعامل مع التقنية، ومعرفة الأساليب المثلى للقراءة من الحاسب، والإبحار بواسطته للحصول على المعلومات.

من هنا نعرف أن الفجوة بين عالمنا وعالمهم كبيرة، وسكوننا في مقابل حركتهم يجعل هذه الفجوة في ازدياد مطرد. وأعتقد أن الأساس في وجود هذه الفجوة، وتفاقمها عبر السنين هو عدم أخذ العلم لمكانته الحقيقة في النظام الاجتماعي، والسياسي، والثقافي في المجتمع الإسلامي. كل هذا يتطلب أن تأخذ الجامعة ومعهد البحث والتطوير، ويأخذ الباحث والأكاديمي المكانة المطلوبة في النسيج السياسي، والثقافي، والاجتماعي، من أجل أن تنهض البلاد، ومن أجل أن نتحرك في اتجاه تقليص الفجوة، ولنواكب مسيرة الإنسان الحضارية.

فالمهمة الموكلة للجامعة هي أن تكون منارة العلم، ومنتجًا للمعرفة بشتى صنوفها، وبالتالي نشر المعرفة في صفوف أبناء المجتمع، والمهمة الموكلة إليها تتطلب أن تقوم هي بالتأثير على المجتمع، وتوجيه مسيرته إلى ما فيه خيره، والأكاديمي والباحث هما العنصر الأساس في كل هذه العملية. ولكن تعترض رسالة جامعاتنا في بلادنا

منتدى الثلاثاء الثقافي
Thulatha Cultural Forum

الكثير من المعوقات، والتي تحول دون أن يكون للجامعات مشاركات أصيلة في إنتاج المعرفة، والرقي بدورها أبعد من مجرد تدوير لها، وتعترض رسالة الأكاديمي الكثير من المعوقات، والتي تحول دون أن يكون له الدور الريادي في المشاركة الفاعلة، في نتاج يجعل منا شركاء في المسيرة العلمية العالمية. فكم من المعرفة تشارك الجامعة في إنتاجها؟ وكم من المعرفة تشارك بها معاهد البحث والتطوير؟ وكم من نتاج عقول الأكاديميين في جامعاتنا يترجم إلى معرفة تصل إلى أيدي الناس والمجتمع؟

أعتقد أن هناك مجموعة من العوامل تتضافر لتشكّل عائقًا في سبيل تقدمنا، واسمحوا لي بالحديث بشكل موجز عن ثلاث جوانب رئيسية:

الجانب الأول:

إن أحد الأسباب الذي تمكنت بها اليابان النهوض من محنتها بعد الحرب العالمية الثانية لتصبح أهم منتج للالكترونيات، وأحد الأسباب التي تمكنت بها ماليزيا من المضي في طريق بوابة المعلومات، وأحد الأسباب الذي أوصل الأمريكيين للقمر والسياحة في الفضاء، هو وجود الرؤية الإستراتيجية لما ينبغي تحقيقه، ووجود الخطط المدروسة لتحقيق تلك الأهداف. إن عدم وجود رؤية إستراتيجية لما نريد تحقيقه علميًّا على مستوى الوطن، هو أحد الأسباب الرئيسة في عدم تواصل خطواتنا إلى الأمام.

فنحن في المملكة وبالرغم من وجود أكثر من سبعة آلاف من أساتذة الجامعات، إلا أن خلوالساحة من تلك الأهداف يجعل الكثير من جهدهم مبعثر، وبالرغم من كثرة المختصين، إلا إننا قلما نجد دراسات اجتماعية، وإنسانية، تلامس واقع بلادنا، وتتناول المشاكل الدخيلة على المجتمع، أما نتاجنا التقني فإنه يبقى مستقرًا في رفوف

الغير وبلغتهم. إن غياب النظرة الإستراتيجية للعلم والمعرفة، وعدم وضع العلم في مكانته الطبيعية، أبقى على البنية التحتية العلمية في وضع لا يمكننا من إنتاج المعرفة بمعناها الحقيقي.

الجانب الثاني:

من أجل أن نتمكن من المشاركة الفاعلة في الحركة العلمية العالمية، كان لزامًا تحقيق العدالة بين المنتمين للمشروع العلمي، فالمساواة تجعل الكل تحت مظلة واحدة من الأحكام والضوابط، والتمسك بهذه الأحكام والضوابط تبني الثقة في النفس، وتجعل الشراكة في النهضة العلمية عنوانًا للكل، مما يعزّز الانتماء إلى هذا المشروع الكبير.

وبالرغم من أن الجامعة كان مفترضًا لها أن تكون المنارة الأولى في نشر مبدأ تساوي الفرص والمساواة إلا أننا نرى أن الجامعة - وبدلًا من أن تؤثر في محيطها - نراها قد تأثرت بمحيطها، وأصبحت المحاباة الشخصية، والقبلية، أو المناطقية، أو المذهبية، واضحة وبارزة، مما يؤدي إلى قتل الانتماء، وقتل الانتماء هذا يتفاقم بفعل التغذية المرتجعة، فالمفاضلة الغير عادلة تولد مقدارًا من الشعور بعدم الانتماء، وفي المقابل ظهور هذا المقدار من الشعور بعدم الانتماء، سيبرر عدم الأخذ بالمفاضلة العادلة، وهكذا يكبر الداء مع تقادم الزمن، وهذا بدوره يضر بمسيرة العلم والمعرفة، وتهمّش قيمة العلم، والمهتمين بالعلم في نفوس الناس.

الجانب الثالث:

إن العامل المحرك والأساس في الحركة العلمية هو الأستاذ الجامعي، والباحث العلمي، وبطبيعة الحال فإن هذا الأكاديمي له طموحاته العلمية وغيرها، ولكن ما ذكرناه فيما يتعلق بقصور في البنية التحتية، وغياب الخطط الإستراتيجية، وما ذكرناه من استيراد

منتدى الثلاثاء الثقافي
Thulatha Cultural Forum

الجامعة لبعض أمراض محيطها، يقف عائقًا يحول بين الأكاديمي وبين تحقيقه لطموحاته.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن وجود النخبة الأكاديمية بمفهومها المتداول الآن جديد على المجتمع، ودورهم في المجتمع سواء كانوا منشغلين بالتخصصات التقنية، أوالتخصصات الإنسانية، ليس ملموسًا وليس مفهومًا من قبل الكثير. فإن الأكاديمي ونتيجة لكل ذلك يرى أمامه صعوبات متراكمة ومتعاضدة، تحول بينه وبين تحقيق ما يتمنى تقديمه، فنراه يقف أمام ثلاث خيارات، إما المواجهة والتصميم والمثابرة للتغلب على كل ما ذكرناه ليبدع ويتألق بنتاجه العلمي، وإما أن يسقط في خضم كل هذا ويتراجع نتاجه الفكري والعلمي، وينحصر عطاءه في عملية تدوير المعرفة فقط. وإما أن ينطلق إلى خارج أسوار الجامعة على حساب انتمائه الأول في الأخير.

ومن كل هذا تبرز لنا حقيقة مفادها أن نظامنا التعليمي يحتاج إلى أن يتعاطى مع العلم والمعرفة ورجالها بالشكل الذي يضعها في مكانتها الطبيعية، وأن يتعاطى مع تحديات الفجوة الحضارية التي نعيشها بشكل يسقط الحجة من أيدي من يقول بأن الدكترة هي أكبر من العالم العربي، وأنها تمثل شكلاً آخر من أشكال الإهدار للموارد المالية والبشرية.

منتدى الثلاثاء الثقافي
Thulatha Cultural Forum

منتدى الثلاثاء الثقافي

Thulatha Cultural Forum